

حرفة النقش بالحناء بمدينة فاس

لنبته الحناء مكانة خاصة في الدول الإسلامية متجذرة في القدم ووجودها في المغرب مرتبط بمناسبات عديدة ولكل مناسبة معنى خاص بها، فهي رمز للأفراح والأحداث السعيدة كالأعراس والموالد والختان والصيام... وهي تجلب الحظ وتدرأ الحسد في معتقد بعض المغاربة ولذلك يكثر تداولها في شهر شعبان وللمرأة الحامل بشهرها السابع وتزين بها العروس .

كما تعتبر منبعاً للجمال ، وهنا يشترك فيها الرجل والمرأة على السواء حيث تدهن بها فروة الرأس واللحية لتغطية الشيب وإضفاء النظارة على الجلد وتخضب بها اليدين والرجلين.

وقد عرف المغرب بجودة هذه النبتة وخاصة في " حوض المعيدر " بإقليم زاكورة نظراً للعوامل البيئية التي تتميز بها المنطقة من التربة والمناخ الجاف والحر وتوفر الضوء اللازم لشتلة الحناء وهناك دراسة مخبرية تهدف إلى استخراج الزيوت من وردة الحناء.

وقد شكلت الحناء مصدراً للجمال والأناقة بالنسبة للمرأة الفاسية التي كانت ولا زالت هاوية ومهووسة بكل ما يزيد من جمالها وأناقته، فاستعملتها لتجميل يديها ورجليها بنقوشها الجميلة وألوانها الزاهية وصباغة شعرها وتطعيمه وتزويد جسدها بعطرها . حيث لا يمكن أن تزور مدينة فاس دون أن تمر بسوق الحناء لتقتني من بائعي الأعشاب العطرية نبتة الحناء .

والحناء الفاسية تركز في الأساس على أشكال ورشومات مستوحات من حرفة الطرز الفاسي " القرب، العراش... " التي يتم رسمها بدقة فوق اليد، مما يشترط في الحناية أن تكن طرازة ماهرة مسبقاً لأن هذه الحرفة تتطلب الصبر والتركيز والتزام الصمت وحفظ الأسرار لأنها في الغالب تدخل البيوت وتحضر أهم المناسبات الخاصة .

وقد كانت الحناية قديماً تعتمد في تهيئ الحنة على عدة أدوات أهمها : المهرز لدق عشبة الحنة وقطعة من القماش ذات ثقب دقيقة جدا تدعا " ثوب الحياتي " وكذا المرود وهو أداة مصنوعة من قرن الماعز تستعملها المرأة لتجميل عينيها بالكحل، ويشترط في الحناية عند عملية إعداد الحنة أن تكون مطهرة و تكثر من ذكر الله والصلاة على النبي وذلك لقدسية هذه النبتة في منظور أهل فاس.

وكانت الحناية لا تشترط في أجرتها لأنها تعتقد أن حرقها هبة ورزق من الله ولا يمكن مساومته بأي شكل من الأشكال .

وكان نقش الحناء مقتصرًا على نساء العائلات العريقة بمدينة فاس ، وهي تعبير عن الحب والرضا من طرف الزوج لزوجته أو دعوة إلى الصلح في حالة حدوث خصام بينهما، حيث يستدعي الزوج الحناية رفقة فرقة موسيقية غالباً ما تكون روحية ويستحضر فيها كل أحبة الزوجة وأهلها وصديقاتها المقربات في حفل بهيج ممزوج بعبق الأبخرة المتكونة من العود وسرغينة والزغاريد والأمداح النبوية التي ترقى بالنفوس وتريحها. ولجبر الخواطر يجزل الزوج في العطاء والهدايا للزوجة لكسب رضاها .

وعند انتهاء الحناية من عملها ترتدي المرأة الأساور والخواتم والخالخيل الذهبية والشربيل المطرز وأجمل الملابس التقليدية وترش بماء الزهر وأزهي العطور وأتمنها لتزيد من جمالها ورقتها وتصبح هي نفسها كتحفة فنية أو كلوحة ناطقة بأجمل تعابير الحب والاحترام والمكانة العالية التي كانت تتمتع بها المرأة الفاسية آنذاك.

ولقد دخلت على حرفة نقش الحناء عدة مستجدات وكان للعولمة الأثر الكبير في ذلك، فأصبحت تطبع على أوراق توضع على اليد مباشرة دون الحاجة إلى نقاشة كما أن لدخول بعض النقوش الهندية والخليجية إلى قاموس النقوش الفاسية وتعويض المرود بإبرة وإضافة بعض المواد المضرة بالجلد بهدف الإسراع في العمل وكسب المال، شأنها شأن العديد من الصناعات التقليدية المتجدرة في القدم، كل هذه الدواخل ضعيت أصالة هذه الحرفة وحلاوتها ولم يتبقى منها إلا بعض الذكريات الجميلة ورائحتها المنعشة الشافية.